المقدمة

غنيت المكتبة العربية بالعديد من الدراسات التاريخية حول بيت المقدس، ولكنها ما زالت تفتقر إلى دراسات أدبية حولها، لتبين صورتها في الأدب العربي. وتركز هذه الدراسة على تبين صورتها في أدب الحروب الصليبية، شعره ونثره، في العصرين الفاطمي والأيوبي، بل في العهود الزنكية، والفاطمية، والأيوبية.

يقوم هذا البحث على دراسة موضوع «بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية» منذ أواخر القرن الخامس الهجري، وفي القرن السادس الهجري، وفي النصف الأول من القرن السابع الهجري، أي منذ احتلالها في سنة ٤٩٢ هـ، من قبل المحتلين الفرنج، وحتى تحريرها للمرة الثالثة في سنة ٦٤٢ هـ.

إن معالم الأحداث التي مرت ببيت المقدس في تلك العهود، من جراء غزو الفرنجة، وقد بدا صداها في الأدب العربي في تلك الفترة، تتشابه مع معالم الأحداث التي تمر ببيت المقدس الآن، من جراء الغزو الصهيوني، وهو تشابه في البواعث، والأهداف، والغايات، وذلك يدعو إلى العظة والعبرة دون شك.

تقع هذه الدراسة في أربعة فصول، يتحدث الفصل الأول منها عن «بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية قبل الفتح القدسي». وفيه نتبين صورة بيت المقدس في الشعر الناجم عن الهزيمة، ولكنها صورة لم تبد جلية، وذلك لأن صدى الهزيمة كان باهتاً في الشعر. كما نتبين الدعوة إلى الجهاد، ووحدة

المسلمين، لتحرير بيت المقدس وغيرها مما احتل من ديار الإسلام، في الشام، ومصر، والجزيرة. وقد بدت الصورة جلية في هذه المرحلة، بعد أن تخلص المسلمون من الهزيمة وآثارها، وبدأوا بإجراء الانتصارات بقيادة الزنكيين عماد الدين، ونور الدين. وكانت تلك الانتصارات مقدمة للفتح القدسي.

وتبدو الدعوة إلى تحرير بيت المقدس جلية من خلال القصائد التي تغنى الشعراء فيها بالانتصارات، ومن خلال رثاء الأهل والأوطان، ورثاء الأبطال، ومن خلال الأشعار التي قيلت في التعريض بالحكام الذين تعاونوا مع الفرنج، والأشعار التي قيلت في التهاني، والتعازي، والحنين وتبادل العديد من الشعراء الرسائل الشعرية، يدعون إلى وحدة المسلمين في مصر والشام، كما يبدو في أشعار طلائع رُزّيك وأسامة بن منقذ، وغيرهما من الشعراء. وتبدو الدعوة إلى الوحدة جلية في العديد من الرسائل التي أنشأها القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وقد كانت تلك الرسائل الأدبية خير معين في تجلية الحديث عن الدعوة إلى وحدة المسلمين.

ويتحدث الفصل الثاني عن «بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية» في فترة الفتح القدسي، وكان صداه كبيراً في الأدب العربي، فقد ترددت أصداؤه في شعر الكثير من الشعراء المسلمين من أمثال العماد الأصفهاني، وابن سناء الملك، وابن الساعاتي، والرشيد بن بدر النابُلُسي، ويوسف بن المجاور، والحسن بن علي الجويني، وابن جبير، وفتيان الشاغوري، وغيرهم. وأُنشىء عدد من الدواوين الخاصة ببيت المقدس، ومنها: «ديوان المبشرات والقدسيات» لعبدالمنعم الجلياني، وهو ما سأتحدث عنه في بحث خاص بتلك المبشرات والقدسيات.

وتردد صدى هذا الفتح القدسي العظيم في الكثير من الرسائل القدسية التي أنشأها القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وضياء الدين بن الأثير، كما تردد ذلك الصدى في خطبة القاضي ابن الزكي التي خطب بها في المسجد

الأقصى بعد تحريره في سنة ٥٨٣ هـ.

وينظر الأدباء إلى الفتح القدسي نظرة تعظيم، ويعده العماد الأصفهاني هجرة ثانية يؤرخ بها، وبها بدأ كتابه «الفتح القسي في الفتح القدسي»، ورأى فيه هجرة الإسلام إلى بيت المقدس ثانية.

ويربط الأدباء بين الفتح القدسي والفتوح الحاسمة في التاريخ الإسلامي، ويعدونه شبيها بـ «الفتوح العمرية، والفتكات العلوية»، وبه جددت أيام القادسية، و «الوقعات اليرموكية، والهجمات الخالدية» كما يقول الخطيب ابن الزكي. ويصورون الرباط المقدس بين المقدسات الإسلامية في بيت المقدس، ومكة، والمدينة. ويتحدثون عن آثار الفتح القدسي في نفوس المسلمين، في المجالات المختلفة: الدينية، والسياسية، والفكرية، والأدبية، والاقتصادية، والاجتماعية.

ويتحدث هذا الفصل عن الفاتح السلطان صلاح الدين كما تبدو صورته من خلال الأشعار القدسيات التي أنشئت بمناسبة الفتح القدسي، وهي كثيرة أنشأها الشعراء المسلمون من أمثال العماد الأصفهاني، وابن سناء الملك، وابن الساعاتي، وعبدالمنعم الجلياني، والرشيد بن النابلسي، وفتيان الشاغوري وغيرهم.

كما تبدو صورته من خلال الرسائل القدسية الكثيرة التي أنشأها القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وضياء الدين بن الأثير. ومن خلال خطبة القاضي ابن الزكي. ومن خلال عدد من الكتب الأدبية التي صنفت حول السلطان صلاح الدين وجهاده، مثل: «الفتح القسي في الفتح القدسي» للعماد الأصفهاني.

يصور هذا الفصل اهتمام صلاح الدين بالجهاد، وقد قضى حياته مجاهداً للحفاظ على الإسلام والمسلمين، لقد قاد حركة الجهاد ضد الفرنج لتحرير ديار الإسلام، وعلى رأسها بيت المقدس.

ويصور الأدب بطولته، وسجاياه، وأعماله، وفتوحاته، في الأشعار القدسيات، والرسائل القدسيات، والخطبة القدسية. كما يصوره الأدب القائد المجاهد، مقتدياً بالسلف، من حيث خلاله، ورعايته للمسلمين سياسياً، واجتماعياً، واقتصادياً وثقافياً. ويصور الأدب جيوش المسلمين التي حققت الفتح القدسي بقيادة صلاح الدين.

وتجدر الإشارة إلى أنني لم أُفرد فصلاً للحديث عن الفاتح الملك الناصر داود، في سنة ٦٣٧ هـ، لأن الفتح نفسه لم يجد صدى في الأدب آنذاك، والدراسة هنا تقوم على دراسة بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية: فتحاً، وفاتحاً، ومحتلاً. وكذلك كان الحال في الفتح القدسي الثالث، عندما حُررت مدينة بيت المقدس، للمرة الأخيرة، في سنة ٦٤٢ هـ، فلم يكن له صدى في الأدب.

ويتحدث هذا الفصل عن صورة محتلي بيت المقدس الفرنج، كما تبدو من خلال الأشعار القدسيات، والرسائل القدسيات، والخطبة القدسية، والمصنفات التي صنفت حول الفتح القدسي، مثل «الفتح القسي في الفتح القدسي» الآنف ذكره.

ويصوره هذا الأدب عدواً غازياً تحدوه أهداف دينية، وسياسية، واقتصادية. كما يصوره ناشراً للخراب والدمار، سفاكاً للدماء، ويبدو الصراع في العقيدة بين المسلمين والفرنج، جلياً في هذا الأدب، فيصورهم أهل كفر وشرك، وأهل رجس وآثام.

ويصور جيوشهم جرارة عدداً وعُدة، ويصورهم جبابرة أسوداً قبل المعركة، ضعفاء أذلاء بعد الهزيمة التي منوا بها.

ويصور ملوكهم وقادتهم قبل المعركة وبعدها، كما يصور فرسانهم، وخاصة الداوية، والاسبتارية منهم. ويصور أسراهم مصفدين بعد أن دارت عليهم رحى الحرب الطحون. كما يصور حصونهم، وقلاعهم، وأبراجهم التي أقاموها للحفاظ على مملكتهم اللاتينية في بيت المقدس، كما كانوا يسمونها.

ويتحدث الفصل الثالث عن «بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية بعد الفتح القدسي». ويركز البحث، في هذا الفصل، على تبين صدى أهم الأحداث التي نزلت ببيت المقدس، وتبين صداها في الأدب العربي آنذاك، وهي:

- محاولات الفرنج استرداد بيت المقدس.
- خراب بيت المقدس اضطراراً، في سنة ٦١٦ هـ.
- التنازل عن بيت المقدس، في سنة ٦٢٦ هـ.
- تحرير بيت المقدس ثانية في سنة ٦٣٧ هـ.
- التنازل عن بيت المقدس، في سنة ٦٤١ هـ.
- تحرير بيت المقدس ثالثة، في سنة ٦٤٢ هـ.

ولم يكن صدى هذه الأحداث في الأدب العربي جلياً، إذ لم يرتفع إلى مستوى هذه الأحداث ذاتها. إن الخراب الذي حل ببيت المقدس في سنة ٦١٦ هـ، لم ينل صدى يُذكر في الأدب العربي آنذاك. ولم يستثر التنازل عن بيت المقدس في سنة ٦٢٦ هـ، على يد الملك الكامل الأيوبي، الشعراء الاستثارة الجديرة بالمصيبة العظمى، ولم يقل فيه الشعراء إلا القليل من القصائد والمقطوعات. يضاف إلى ذلك ما دار في المجلس الذي عقده سبط ابن الجوزي، في الجامع الأموي بدمشق، بطلب من الملك الناصر داود. ولم ينل الفتح القدسي الثاني في سنة ٦٣٧ هـ إلا ثلاثة أبيات قالها جمال الدين بن مطروح، ورسالة واحدة كتبها الفاتح نفسه، الملك الناصر داود، إلى الخليفة العباسي في بغداد، يبشره بالفتح، فيما وصل إلينا. ولم يكن للتنازل عن بيت المقدس ثانية، بسبب الصراع في البيت الأيوبي، بعد السلطان صلاح الدين، أي صدى في الأدب آنذاك، ومن المستغرب ألا يكون لتحريرها في سنة ٦٤٢ هـ، صدى مهما كان نوعه في الأدب، فيما وصل إلينا.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنني اضطررت إلى الاستعانة بالتاريخ، بشكل موجز، في هذا الفصل، وذلك عندما كان يعوزني الأدب إلى ذلك، لعدم توفر النصوص الأدبية.

كما تجدر الإشارة إلى أن رسائل القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، كانت خير معين في مجال الأدب، في هذا الباب.

ويركز الباب الرابع على دراسة فنية للأشعار القدسيات، إذ يركز على عدد من القضايا الأدبية والنقدية التي استقرأها من واقع النصوص الشعرية القدسية، ومن أهمها: التجربة الشعرية في القصيدة القدسية، وبنية القصيدة القدسية، وأسلوبها والصنعة البديعية، والصورة الشعرية.

كما يركز على دراسة فنية للرسائل القدسيات، إذ يركز على عدد من القضايا الأدبية والنقدية التي استقرأها من واقع نصوص الرسائل القدسية أيضاً، ومن أهمها: بنية الرسالة القدسية، والأسلوب والتأثر بالشعراء السابقين (حل المنظوم)، والتأثر بالكتاب السابقين، والصنعة البديعية، والصورة الشعرية.

وتجدر الإشارة إلى أنني استثنيت أشعار عبدالمنعم الجلياني «المبشرات والقدسيات»، من أن تكون متضمنة في كتاب «بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية»، وخصصتها بكتاب مستقل لتميزها.

كما تجدر الإشارة إلى أن القدامى من المؤرخين والأدباء، وصفوا غزو أوروبا للمشرق الإسلامي بـ «الغزو الفرنجي»، أو «غزو الفرنجة». وكان هذا المصطلح هو المصطلح الشائع آنذاك وأما في العصر الحاضر، فقد شاع مصطلح «الغزو الصليبي»، أو «الحروب الصليبية»، ولهذا عمدت إلى استخدام هذا المصطلح الأخير.

واستخدمت «مصطلح أدب الحروب الصليبية»، وأعني به ما كان من صدى في الأدب العربي، لاحتلال الغزاة المشرق الإسلامي. وقد يعني هذاالمصطلح كل ما قام من أدب حول الحروب الصليبية، من أدب عربي، أو أدب غير عربي. ولكن المصطلح قد استخدم في العصر الحديث أيضاً، ليدل على مثل ما ذهبت إليه. وقد أصبح المصطلح شائعاً. وقد نبهت إلى هذا تحوطاً وحذراً، لتوضيح مقصدي.

وكلي أمل أن أكون قد وفقت في سبيل تحقيق الهدف العلمي الموضوعي في هذه الدراسة، وهو ما يرومه الباحث، ويرنو إلى تحقيقه.

ويطيب لي أن أتوجه بالشكر إلى مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، ومكتبة الجامعة الأردنية، والمكتبة الظاهرية، بدمشق، ومكتبة جامعة دمشق، ومكتبة المعهد العلمي الفرنسي بدمشق، والمكتبة السليمانية، وغيرها من المكتبات باستانبول، لما وفرته لي هذه المراكز العلمية من المصادر القيمة، مخطوطة ومطبوعة.

والله من وراء القصد

عبدالجليل عبدالمهدي

عمان في ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م